الفصل الرابع

خِطبتي وزواجي

في أحد الأيام، وأنا في طريقي لمقابلة صـديقاتي؛ لتناول الغداء شـعرت بأن شخصًا ما يتعقبنـي. التفتّ بجانبـي، فلاحظت أن رجلًا عجوزًا يقف أمام متجـر للأحذية يراقبني، وأنا أمرّ بقربه.

ناديت عليه بشجاعة: «عمو! لماذا تنظر إلي؟ ماذا تريد؟».

نزل العجوز إلى الشارع مترددًا.

«هل يمكن أن أتحدث معك؟» سـألني هذا السـؤال، وهو على يقين أنه إذا أهانني فسوف أخلع حذائي، وأضربه به، وسيكون القانون بجانبي؛ لأني امرأة.

«نعم، يمكنك التحدث معي. ماذا تريد؟».

تردد لحظة، ثم تقدم خطوة نحوي.

«أأنت متزوجة أم مخطوبة؟».

«ماذا؟ لماذا تسألني هذا السؤال؟».

«أنا لم أقصد الإهانة».

فتركته، ومشيت.

فـي طريق عودتي للمنزل سـلكت طريقًـا مختلفًا؛ حتى لا أمرّ بذلـك الرجل العجوز مرة أخـرى، ولـم أفكر فيه ثانية إلا بعد بضـعة أيام، عندما لمحته يتعقبني. فقد اكتشـفت أن ابنه الـذي يريد الزواج منـي كان يتعقبني كل يـوم، حتى علم مكان عملـي، وذات يوم وجدت ذاك العجـوز وابنـه يطرقان باب المكتب الذي أعمل فيه، سـألا عن مديـر المكتب يريدان التحدث إليه بحجه أن عندهم أرضًا يريدان بيعها؟، ثم اتجه العجوز إلى التحدث مع رئيسي في العمل، يسأله كيف يمكنه التواصل مع والدي؟، وبعد أن خرجا من المكتب أكد لي رئيسي في العمل أن ابن الرجل العجوز هذا من خيرة الرجال، وكان واثقًا أن حياتي معه ستكون رائعة.

obeikandl.com

«إنه طبيب يا فدوى!».

شعرت بغصّة، عندما رجعت إلى المنزل، ووجدت ذلك الرجل العجوز في غرفة المعيشة يبتسم، ويضحك مع أبي، بينما كانت زوجته تتبادل أطراف الحديث مع أمي في غرفة العائلة، وقد كانوا يبدون مرتاحين، كأنهم قد أنهوا محادثة محمومة.

دخلت إلى غرفة العائلة لأرى أمي، ثم رحبت بصديقتها الجديدة، قائلة: «السلام عليكم». أصرت أمي أن أذهب إلى المطبخ، وأحضّر أربعة فناجين قهوة عربية. وبعد أن حضّرت القهوة أعطيت فنجانًا لكل من الضيفين، وأعطيت الفنجانين الآخرين لوالديّ، جلست في غرفة العائلة مع أمي وضيفتها، وأنا لا أزال جاهلة من تكون هذه المرأة، سألتني المرأة عن أحوال عملي؟، ثم تكلمت معها بضع دقائق قبل أن أستأذنها بالانصراف لتغيير ملابسي. لقد راودني نذير بالشؤم، لكني لم أستطع معرفة سببه تمامًا.

وبينما كنت في غرفتي تصافح أبي مع (حماي) المستقبلي مقررين قدري، وقطع أبي وعدًا بتزويجي رجلًا لم ألتقِه أبدًا. وبعد أن غادرا تحدث أبي مع أمي ومعي.

«يعيش أبوحمزة (العجوز) في جبل الحسين (حي في عمّان) ويمتلك متجر أحذية، أما ابنه البكر (حمزة) فهو طبيب يعيش في نيويورك، ويرغب في أن يتزوج فدوى. يبدو أنه رجل جيد، لذلك أخبرت أباه بأن يمنحني يومًا واحدًا لأسأل عن ابنه، وأعطاني هذا العنوان في جبل الحسين».

ارتبكت قليلًا، وكنت أشعر بأن مستقبلي الغامض أصبح ثقيلًا على صدري.

«لكنك يا أبي، لم تقابل ابنه، ولم يأتِ مع والديه، فكيف تعرف أنه رجل جيد؟».

«فدوى، أخبرني أبوه عنه، ويبدو أنه رجل ثقة ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ أنت في التاسعة عشرة الآن، وقد تجاوزت سن الزواج بكثير، ولن تجدي فرصة أفضل من تزوّج طبيب!».

تدخلت أمي، قائلة: إنه ربما علينا أن نسأل عنه، ونرى ما رأي الآخرين في هذا المدعو حمزة؟ وافق أبي؛ لأن السؤال عن الزوج المحتمل كان جزءًا رئيسًا من عملية ترتيب الزواج، وهكذا ذهب أبي في اليوم اللاحق ليتحدث مع صاحب متجر ملاصق لمتجر أبي حمزة. أخبره صاحب المتجر بأنه لا يعرف الكثير عن حمزة، لكنه يعرف أباه جيدًا، وهو رجل محترم، كان

ذلك بالنسبة إلى أبي دليلًا كافيًا على سعادتي المستقبلية مع هذا الرجل. وعندما رجع أبي للمنزل، وأخبر أمي بكل ما حصل جلست أنا في غرفتي أستمع.

حذرته أمي بلطف، قائلة: «لا أعتقد أن ذلك دليل كافٍ، علينا أن نتحدث إلى شخص يعرف حمزة جيدًا».

لكن أبي لم يستمع، وأنهى الحديث غاضبًا.

«أنا متأكد أن حمزة سيكون زوجًا مناسبًا لفدوى، وهذا يكفي!».

كان مجتمعي يعدّ الفتيات في عمر التاسعة عشرة قد تجاوزن عمر البحث عن زوج محتمل، ففي هذا العمر يفترض على المرأة أن تكون متزوجة مسبقًا، وبدأت بإنجاب الأطفال، وما جعل الوضع أكثر سوءًا هو أني انفصلت عن ابن خالتي، وذلك جلب العار على عائلتي، كما يظنون، وكان أبي قلقًا من أن تقدمي في العمر لن يجعل أحدًا يفكر في الزواج مني، فلم يتعلق الأمر بكبريائه فحسب، بل أراد أيضًا أن يضمن أن هناك شخصًا يعتني بي. لم يطرح أسئلة كثيرة عن حمزة، فماذا كان سيفعل لو اكتشف شيئًا مكروهًا فيه؟ ما الخيارات الأخرى المتاحة لي؟ لذلك أرغمني على تزوج حمزة، لقد تربيت على طاعة والدي وتنفيذ كل أوامرهما، حتى لو أثر ذلك فيّ سلبيًّا، وكان من المستحيل أن أعارض قرار أبي مهما جعلني ذلك تعيسة.

ذهبت في اليوم المقبل للعمل كالعادة، وزفت خبر خطبتي لصديقاتي؛ حليمة ورائدة ورندا، وبلا ريب منيرة، لكني رجوتهن ألا يبالغن في الموضوع، فلم يكن هذا شيئًا أحتفل به. وهكذا التقيت صديقاتي لتناول الغداء، كأنه يوم مثل كل الأيام، رآني رئيس عمل حليمة (الدكتور كريم) أتناول الطعام مع صديقاتي، وعاتبني، قائلًا:

«لماذا حضرت اليوم يا فدوى؟ إنه يوم خِطبتك! عليك أن تبقي في البيت لتحضري نفسك».

ابتسمت له بأدب، لكن لم أعتزم الرجوع للبيت مبكرًا، لماذا قد أفعل ذلك؟ فأنا لا أعرف خطيبي. لذلك بقيت طوال مدة العمل، ورجعت إلى المنزل الساعة ٦:٠٠ مساء، وهو الوقت نفسه الذي أرجع فيه كل يوم.

وعندما وصلت إلى المنزل رأيت رجلين يقفان أمام منزلنا يدخنان السجائر.

obeikandl.com

قـال لـي أحدهما: «لا بد أنك فـدوى». لكن الرجل الآخر لم يقل شـيئًا، واكتفى بالوقوف هناك يدخن.

«نعم، عمو، أنا فدوى». تساءلت: من هذا الرجل؟، لكنه لم يخبرني، وأنا لم أسأله.

دخلت، ووجدت المنزل مليئًا بأناس كانوا غرباء بالنسـبة إلي، اجتمعت النساء في غرفة العائلة، ثم جلس الرجال في غرفة المعيشـة. أما أنا فقد نظرت بتفحّص إلى غرفة المعيشـة، عندما مررت بها، متسائلة أي من هؤلاء الرجال سيصبح زوجي؟

كان (حمـزة) هو اسـم الرجل الذي سـأتزوجه. كان فـي الحقيقة له اسـمان، أحدهما (أحمد) بحسـب شـهادة ولادته، لكن كان يطلق عليه اسـم (حمزة). فقبل أن يُولد مات لأمه أطفال كثيرون في سـن الرضـاعة، ولأنها كانت تتمنى أن ترى أولادها يكبرون، اعتقادًا أطلقت علـى كل واحد منهم اسـمًا ثانيًا؛ لحمايته من الموت مبكـرًا. كان والدا حمزة ابني عمومة من بلدة رام الله الصـغيرة، وبعد الاحتلال الإسـرائيلي لفلسـطين عام ١٩٤٨م سـاءت الأوضـاع الاقتصـادية ما جعل والديّ حمزة يرحلان إلى كولومبيا، عندما كان حمزة في سن الخامسة. وعاش حمزة في كولومبيا من طفولته المبكرة إلى نهاية الدراسة الثانوية.

اتضح أن حمزة وأباه لم يكونا في منزلنا في تلك اللحظة، فقد استقلّا سيارة أجرة، وذهبا إلى المحكمة ليحضرا مأذونًا إلى منزلنا؛ ليوقع عقد الزواج. وعندما سمعت سيارة الأجرة تتوقف بالقرب من المنزل أسرعت إلى غرفة النوم، واختبأت وراء الباب، تبعتني أختي سميرة.

«مـاذا تفعليـن وراء الباب يا فدوى؟ لقد وصـل المأذون! لقد عرفته من جلبابه الأسـود وعمامته البيضاء الطويلة».

«صـه! سيسـمعك أحدهم، ويعرف أني هنا! أنا لا أريد أن أتزوج، لقد عقد حمزة العزم على تزوجي، لكنني لا أعرفه حتى الآن».

سحبت سميرة كمّي، قائلة: «أرجوك يا فدوى».

جف ريقي فزعًا، عندما سمعت وقع أقدام تتجه نحو غرفتي.

أصـبحت سـميرة متوترة، وقالت: «اخرجي من هناك يا فدوى، وإلا فسـيعتقد المأذون أنني أنا العروس، ويزوجني إلى ذلك الرجل!».

«ما الذي يقلقك؟ فأنت متزوجة وبأمان من هذا كله!».

«فدوى!».

تنهدت، محملقة فيها، لكني خرجت على مضض من وراء الباب في اللحظة نفسها التي دخل فيها المأذون وحمزة وأبي وأبوحمزة وشاهدان الى الغرفة. فجلسنا جميعًا لبدء الإجراءات. كان المأذون يجلس على بعد بضع أقدام مني، ثم أخرج ورقة ليكتب عليها عقد زواجنا.

أنا ..... مأذون عقود الزواج في ..... قد أجريت هذا العقد على الوجه المفصل أعلاه بعد التحقق من استكمال الشروط وعدم الموانع.

توقيع المسجل المعتمد:

شهود التعريف والتوثيق:

الزوج أو وكيله:

الزوجة أو وكيلها:

كفيل تنفيذ الشروط:

تصديق المحكمة:

أخبر المأذون حمزة بأن يعاملني معاملة حسنة، ويعتني بي؛ لأني سأصبح زوجته، ثم التفت إلي، وقال لي الشيء نفسه. سجل أعمارنا (٢٠ و٣٠) مع أني كنت لا أزال في التاسعة عشرة، ثم ذكر في الوثيقة أنني عذراء. كان التاريخ يوافق اليوم الثلاثين من شهر نيسان عام ١٩٨٦م، عندما وقعنا جميعنا على العقد. لكن لم يدعنا المأذون نقرأ العقد، ولم أعرف ما محتواه بالضبط إلا لاحقًا.

نهضنا جميعًا لنخرج من الغرفة، وتم الإعلان بأنني وحمزة مخطوبان رسميًّا. وما لبث أن ابتهج الجميع في المنزل، وبدؤوا يزغردون فرحًا. ثم أعطى حمزة أبي المهر البالغ ١٥٠٠ دينار، ووعد بأن يرافقني في الصباح لأشتري خاتمًا.

كان اليوم المقبل مشمسًا في معظمه، لكن استمر هطل المطر بشكل متقطع. أوقف حمزة سيارة أجرة ليأخذني أنا وأبي إلى وسط المدينة لنشتري خاتمًا، وما إن وصلت السيارة،

obeikandl.com

وركبنا في المقعد الخلفي إذا نحن مبلّلون، ونرجف. وبعد أن أعلمنا السائق بالمنطقة المتوجهين إليها التفت حمزة إلي، وأعطاني نظارته قائلًا:

«امسحي لي نظارتي يا فدوى».

لم يطلب مني ذلك بأدب، فقد أعطاني نظارته متوقعًا مني أن أنفذ أمره. نظرت خلسة لأبي لأرى ردّة فعله، فقد عرفت أنه سمع ذلك. بدا أبي متضايقًا قليلًا، لكنه لم يقل شيئًا.

أمسكت حاشية حجابي، وبدأت أمسح قطرات المطر عن نظارته. ثم نظرت إليه، وتخيلت كم من الممتع أن أمد يدي، متظاهرة أني أعطيه النظارة، ثم أفتح الباب بسرعة، وأدفعه خارج سيارة الأجرة، وأراقبه يتدحرج على الرصيف مبتعدة أكثر وأكثر عنه، جعلتني هذه الفكرة أبتسم قليلًا.

التفت إلي مبتسمًا، وقال:

«فدوى، أريد أن أتحدث معك حول أمر ما».

«وما هو؟».

«لأننا سوف نتزوج أريدك أن تتركي عملك».

«ماذا؟ ماذا تعني؟».

«لا أرغب في أن تعمل زوجتي، سوف أرجع إلى نيويورك بضعة أشهر قبل الزفاف، وفي أثناء غيابي سوف تبقين في منزل والدي».

كظمت غيظي على هذا الغريب الذي يتدخل في حياتي. فأنا لم أستطع قول أي كلمة يمكن أن تجعله يعتقد أنني سأكون زوجة سيئة. نظرت لأبي على أمل أن يدافع عني، لكنه بقي صامتًا.

دخلنا إلى متجر الجواهر، وألقينا نظرة على تشكيلة خواتم الزفاف، وكان من المستحيل أن أجد خاتمًا لا ينزلق عن أصبعي النحيلة، لكن البائع قال: إنه سوف يعدّل حجم الخاتم الذي اختاره حمزة لي، وقام بنقش اسمينا وتاريخ خِطبتنا (٣٠ نيسان) على الجزء الداخلي لكلا الخاتمين.

obeikandl.com

ذهبت في اليوم المقبل مع عائلتي إلى منزل والدي حمزة لتناول الغداء. جلس حمزة بجانبي.

«لدي هدية لك يا فدوى».

أول مرة أشعر بأن معنوياتي ترتفع قليلًا.

«حقًّا؟ هدية؟».

ابتسم لي سائلًا: «هل تحبين الشوكولاتة يا فدوى؟».

نظرت إليه مستغربة. شوكولاتة؟ كنت أتوقع هدية حقيقية، لكني تحاملت على نفسي، وابتسمت له ابتسامة خفيفة.

«نعم، أحب الشوكولاتة. شكرًا على الهدية».

أخذت العلبة الصغيرة من حمزة، ووضعتها في حقيبتي، وأخبرته بأنني سوف آكلها لاحقًا، ثم اتكأ على المقعد، قائلًا: «سأرى متى يمكنني الحصول على أيام عطل أكثر عندما أعود، ثم سنحتفل بزواجنا، لكن تذكري جيدًا ما قلته لك بخصوص ألا تذهبي إلى العمل، وأنا غائب».

«لكنني مازلت أحتفظ بمفتاح المكتب يا حمزة».

«إذن، عليك أن ترجعيه».

شعرت بالغضب من والديّ؛ لأنهما أجبراني على تزوج رجل لم أعرفه أو أحترمه. وبينما كنت أمشي عائدة إلى المنزل مع عائلتي أخبرت أبي بما كنت أفكر فيه بالضبط.

«أنا لا أريد أن أتزوج».

التفت إلي فجأة مدهوشًا من وقاحتي.

«اخرسي! نحن لسنا في المنزل سيسمعك أحدهم!».

حاولت أن أخفض صوتي على الرغم من الذعر الذي ظل يرغمني على رفع صوتي.

«أنا لا أشعر بالراحة مع ذلك الرجل، فليس بيننا شيء مشترك، فعن ماذا يمكنني أن أتحدث معه؟».

obeikandi.com

لم يرد عليّ أبي.

وفي اليوم الثالث من خِطبتي بحمزة حضـرت زوجة خالي فجأة إلى منزلنا عند الساعة ٥:٣٠ صباحًا بعد أن أنهينا صلاه الفجر، وأصرت على أن تتحدث لأبي فورًا، بقيت أنا وأمي في الغرفة لنستمع إلى ما ستقوله.

«عليـك أن تعـرف شـيئًا عن حمزة قبـل أن تتزوجه فدوى. كان على والديـه أن يخبراك بذلـك، لكـن من المحتمل أنهما أرادا حماية ابنهما، كان حمزة متزوجًا من قبل. فإن خالته أم زوجته السابقة جارتي، وأخبرتني بالقصة بأكملها».

اسـتمع والـداي مذهولين، فقد أخبرتهما زوجة خالي بأن حمـزة كان متزوجًا بنت خاله التي ترعرعت في بورتوريكو، بلد أمها. (كانت هي وحمزة تجمعهما قرابة من جهة أبيها، الذي كان فلسطينيًّا). وليس من الغريب أن زوجة حمزة الأولى لم تعش معه إلا ستة أشهر، ففي ذلك الوقت عاشا في نيويورك، وهناك أجبرها على ارتداء الحجاب، على الرغم من أنها لم ترتديه من قبل، ولم يُسمح لها بمغادرة الشقة إلا إذا أخذها هو للتنزه. أعطاها بعض أشرطة الفيديو لتشاهدها خلال النهار، عندما تنهي الطبخ والتنظيف، لكن لم يسمح لها بفعل شيء آخر، وفي أحد الأيام لم تحتمل العيش معه دقيقة أخرى، فتركته.

ارتعدت لسـماع هذه الأخبار، فالآن من المسـتحيل أن أتزوج حمزة، ومن العار أن أتزوج رجلًا مطلقًا، وأنا لم أتزوج من قبل.

سكت أبي لحظة، ثم سأل: «هل أنجبا أطفالًا؟».

لم ينجبا أطفالًا، وكان هذا بالنسـبة إلى أبي ثغرة يسـتغلها، فما داما قد تطلقا رسـميًّا، ولم ينجبا أطفالًا يمكن لحمزة عندئذ أن يتزوجني، ولم يهتم أبي أبدًا بحقيقة أن زوجة حمزة الأولـى لم تتحمل البقاء معه أكثر من سـتة أشـهر. فعلى الرغم من أن أبـي كان رجلًا متعلمًا، إلا أنه كان ذا عقلية قديمة، عندما يتعلق الأمر بضـرورة تزويج ابنته ذات التسـعة عشـر ربيعًا بأسرع وقت ممكن.

ذهبنا في ذلك المسـاء إلى منزل والديّ حمزة؛ لنتناول طعام الغداء، اجتمعت النسـاء في غرفة العائلة والرجال في غرفة المعيشـة، ثم سـألت أمي مترددة أم حمزة عن زواج حمزة الأول؟

«آه، نعم، أردنا أن نخبركم بهذا، لكن كل شيء حدث بسرعة. حان الوقت ليرجع حمزة إلى نيويورك بعد أن نرى عددًا من الفتيات للزواج، ولكنه لم يعجب بأي واحدة منهن، ولما رأى فدوى قال: إن لم أتزوج هذه الفتاة فسوف أعود إلى نيويورك، وأتزوج أجنبية، ونحن لا نريده أن يتزوج أجنبية. وكنا متأكدين أن فدوى لن ترضى بالزواج منه إذا علمت أنه كان متزوجًا من قبل. واستمرت أمه في الحديث هذا، مبينة أن الطلاق لم يكن خطأه، فزوجته الأولى كانت صعبة المزاج، ونعلم أن الأمور يمكن أن تبدو على غير حقيقتها».

كان هذا التفسير كافيًا لأمي؛ لذلك لم تكن لدي أي فرصة للانفصال عن حمزة. وبعد مرور أربعة أيام لم نتحدث مع بعضنا بالمرة، وكان على حمزة أن يرجع إلى نيويورك، حيث كان يعمل طبيبًا مقيمًا في سكن المستشفى. وطلب مني أن أكتب له رسائل في أثناء غيابه. كتبت له باللغة العربية، لكن اتضح أنه لا يجيد قراءة العربية كثيرًا. لقد كان والداه فلسطينيين، ويعيشان الآن في الأردن، لكن حمزة ترعرع في كولومبيا، وكان يتحدث فقط الإسبانية والإنجليزية بطلاقة. كان يكتب لي باللغة الإنجليزية التي كنت أتقن تكلمها وقراءتها؛ لأنني كنت أتعلمها منذ الصف الرابع.

بعد أن أرجعت المفتاح إلى مكان عملي السابق، كما طلب حمزة لم يكن لدي الكثير لأفعله، إلا خياطة أثواب متقنة لحفلات زفافي. وملأت وقت فراغي بصنع أشياء يدوية في المنزل، مثل الخياطة وتطريز أثواب فلسطينية تقليدية. وكنت لا أزال أتواصل مع منيرة، التي كانت إحدى معارفي القلائل الذين أحبهم.

في أحد الأيام مررت أنا ومنيرة أمام منزل أحمد، فرأيت أخته وأمه تغادران المنزل. أوقفتني أمه، قائلة:

«السلام عليك يا فدوى».

سلمنا على بعضنا، ثم سألتني مترددة عما حدث بيني وبين أحمد.

«كنا سعداء من أجلكما، إنه لم يخبرنا بشيء».

هززت كتفيّ، قائلة: «ولا أنا أيضًا لا أعرف ما خطبه».

بدت أم أحمد حزينة، لكن فات الأوان على تغيير أي شيء، ودعناهما أنا ومنيرة، وواصلنا طريقنا.

بعد ستة أشهر من خِطبتي بحمزة لم يخبرني بالكثير عن نفسه إلا حقائق عامة حول عمله في المستشفى، وهي تفاصيل يمكن أن يخبر بها أي واحد من معارفه. كان كثيرًا ما يشعر بالتعب والوحدة، وكان متشوقًا إلى أن يأخذني معه هناك.

«لن نضطر إلى الانتظار أكثر من ذلك يا فدوى. أنا عائد للأردن في شهر تشرين الأول، وعندها سوف نتزوج».

أصابتني نوبة اكتئاب، عندما سمعت هذه الكلمات، وتضرعت إلى الله ألا يعطيه رئيسه في العمل إجازة. لكن لسوء الحظ أخذ حمزة إجازة مدتها خمسة وعشرون يومًا تبدأ في ٤ تشرين الأول ١٩٨٦م، ورجع إلى الأردن؛ لنحتفل بزواجنا.

ستعقد حفلتان تقليديتان يوم الخميس والجمعة مع زيارتين إلى صالون التجميل وملابس غيار كثيرة والكثير من الطعام في حفلة الزفاف.

في يوم الخميس الموافق ٩ تشرين الأول عند الساعة ٢:٣٠ مساءً أخذني حمزة أنا وأختي نعمة في سيارة أجرة إلى صالون التجميل؛ لأتزين وأسرح شعري. أخبرته خبيرة التجميل بأن يرجع ليأخذني عند الساعة ٧:٠٠ مساءً، كان ذلك في عقد الثمانينيات، لذلك كان من الدارج وضع الكثير من ظلال العينين الزرقاء والحمرة الزهرية. لكن بينما كان شعري ملفوفًا ومرفوعًا للأعلى بدأت أبكي. طمأنت نعمةُ خبيرةَ التجميل بأنني فقط متوترة من رحيلي إلى خارج البلاد. وعندما أصبحت جاهزة تملقتني صاحبة الصالون، وأخذت صورة لي، وأنا في أجمل حلة، مرتدية عباءة سوداء فوق ثوب الحفلة الزهري.

بدأت تلك الأمسية مرتدية فستان ساتان فوشي يحتوي على ربطة وحزام حول خصري وريش صغير زهري يزين أطراف كميِّ فستاني، وصل العريس وعائلته إلى منزل والدي، وكان الجميع يصفقون ويزغردون للاحتفال بزواجي من حمزة. ثم جلبت أمي صينية فيها حلية ذهبية، اشتريتها أنا كلها من مالي (من دخلي الخاص ومهري). وكان على حمزة أن يلبسني كل قطعة منها.

حضّرت أمي (منسفًا) على الغداء، وهو وجبة تتكون من رز مطبوخ بالبخار ولحم ضأن يوضعان على خبز (شراك) مستدير. ثم فردوا أغطية بيضاء على الأرض، ووضعوا المنسف على ألواح خشبية، جلس جميع الضيوف في دوائر حول الطعام، وبدؤوا يغرفون بأيديهم هذا

الطعام الشهي. ثم قام الرجال والنساء ليكملوا الاحتفال في غرف منفصلة، غنت النساء أغاني تمدحني، وتتمنى لي مستقبلًا رائعًا مع زوجي وأطفالي الذين سأنجبهم عما قريب. وبعد بضع ساعات غادر حمزة وعائلته منزل والدي، وهنا بدأ التشويق. فقد أتت زمرة من صديقاتي أيام الدراسة إلى منزلنا، فضحكنا، ورقصنا، ووضعنا الحنة على أيدينا، حتى وقت متأخر من المساء.

عندما شارفت هذه الأمسية الطويلة والسعيدة على الانتهاء رجعت صديقاتي لمنازلهن، وغادرت أخواتي لتضعن أطفالهن الصغار في الفراش. بقيت منيرة وأمها معنا، إضافة إلى بضع ضيوف من العائلة سافروا مسافة طويلة ليحضروا الزفاف. وتمكنت مدة قصيرة من أن أكون على سجيتي، وأنسى حمزة، لكن ما لبثت هذه المدة أن انقضت.

لم أستطع النوم في تلك الليلة التي سبقت يوم زفافنا الرسمي، فبقيت مستيقظة ساعات أفكر في طريقة أتخلص بها من الزواج بحمزة، حتى إنني فكرت في الانتحار؛ لأهرب منه، فلن يكون قادرًا على التأمّر علي عندما أموت، ثم فكرت في الهرب، وهذا سيغضب عائلتي، وربما لن أقدر على الرجوع للمنزل أبدًا، لكني لم أقدر على الزواج من حمزة.

وفي الصباح الباكر قبل شروق الشمس نهضت من فراشي، وارتديت ملابسي، وسرت بصمت في المنزل متجهة نحو الباب أسمع أنفاس الآخرين وشخيرهم؛ لذلك عرفت أنهم لا يزالون نائمين. ثم فتحت الباب بهدوء، وأغلقته خلفي دون أن يشعر أحد، ابتعدت عن منزلي، عن أمي وأبي وإخواني وأخواتي، وأنا على يقين أني لن أراهم مرة أخرى، اتجهت نحو الشارع، وبدأت أمشي جاهلة أين سينتهي بي المطاف، أو كيف سأعول نفسي.

عندما ابتعدت مسافة ثلاثة صفوف من البيوت نظرت إلى أعلى، ووجدت نفسي واقفة أمام منزل أحمد. لقد تغير الكثير خلال الأشهر التي أعقبت يوم وقوفي في غرفته أسترجع صوري، وأخرجه من حياتي. لكن الآن لم يعد أي سبب من أسباب تركي له. وفجأة وجدت نفسي أريد أن أناديه لينزل إلي لأقول له: يمكننا أن نغادر الأردن معًا، كان هناك حائط أبيض طويل خارج المنزل، وهو الشيء الوحيد الذي يقف عائقًا بيني وبين أحمد. نظرت إلى أعلى، ورأيت مجموعة من طيور الحمام جاثمة في خط مستقيم أعلى الحائط، وكانت رؤوسها تنحني، وتهتز بانسجام، فبدأت أبكي، ثم ما لبثت أن رأيت الحمام يطير عن الحائط، ويقف على الأرض بقربي، ثم بدأت تهدل بحزن، كأنها تخبرني بأنها تفهم معاناتي.

مسحت بكمّي وجنتيّ المبللتين بالدموع، وفتحت البوابة، ثم مشيت في اتجاه الباب الأمامي، لكن في آخر لحظة قبل أن أقرع الباب، وأتوسل لأحمد أن يهرب معي ضعفت شجاعتي، وأنزلت قبضتي التي كنت سأطرق بها الباب. عضضت على شفتي؛ لأمنعها من الارتجاف، وابتعدت عن الباب خائبة الأمل. ثم مشيت راجعة إلى المنزل، ودخلت بهدوء شديد مثلما تركته، واستلقيت في فراشي، وأنا أبكي بصوت منخفض. وبعد سبعة عشر عامًا رأيت أحمد في الشارع، فأخبرني بأنه كان لأحد الحمامات عشّ على سطح منزله، وحمامة كانت تظل تنقر على نافذته كل يوم، فشعر آنذاك بأنها تحاول أن تخبره بشيء عني.

بعد بضع ساعات استيقظت مع الجميع كأن شيئًا لم يحدث في الليلة السابقة. كان ذلك يوم الجمعة في العاشر من تشرين الأول، وهو اليوم الذي سيصبح فيه زواجي من حمزة نهائيًّا. وعند الساعة ١:٠٠ مساءً أخذني حمزة مع أختي نعمة إلى صالون التجميل نفسه الذي ذهبنا إليه في اليوم السابق، وبينما كنا نمشي خارجين من سيارة الأجرة إلى الصالون أبطأ حمزة خطاه قليلًا؛ ليجعل أختي تسبقنا، ثم أمسك ذراعي، وانحنى ليهمس بشيء في أذني.

«قولي لخبيرة التجميل أن تسرح شعرك فقط اليوم. فأنا لم يعجبني مظهرك أمس، فقد كنت كالقردة، بكل هذه الألوان على وجهك».

لم تكن لغته العربية جيدة كثيرًا، لكنني فهمت ما قصد بقوله.

«لا أستطيع أن أقول لها ذلك! سوف تعتقد أنني لم أقدّر عملها».

وهكذا مشيت للصالون، وأنا أبكي، كما في اليوم السابق. سألتني أختي: ماذا قال لي حمزة؟

أجبتها: «لا شيء».

حاولت خبيرة التجميل التخفيف عني، لكن بلا فائدة. لم أستطع أن أقول لها: ألا تضع المكياج على وجهي؛ لذلك قررت أن أذهب لزفافي واضعة المكياج على الرغم من أوامر حمزة. وعندما انتهيت من ذلك ارتديت فستان زفافي الأبيض المكشكش والبرقع.

هتفت خبيرة التجميل، قائلة: «إنك تبدين جميلة جدًّا! هل تسمحين لنا بوضع صورتك في واجهة العرض الأمامية للصالون؟».

نظرت إليها، وأجبتها، قائلة: «هل تريدين أن يقتلني والداي؟ لمَ تسألينني هذا السؤال؟».

تخلت عن الموضوع، وبدلًا من ذلك هنأتني على زواجي، ما جعلني أبدأ بالبكاء مرة أخرى. وصل حمزة إلى الصالون تمامًا في الموعد الذي أخبرته خبيرة التجميل أن يأتي ليأخذني فيه. ساعدتني أختي على ارتداء العباءة، ثم رجعنا إلى منزل والدي؛ لنحيي حفلة الزفاف. ارتدى حمزة قميصًا لونه بيج وجاكيتًا بنيًّا وربطة عنق مقلمة بخطوط حمراء. وبدأ أفراد العائلة والأصدقاء بالوصول إلى مكان الزفاف، وجلسوا على المقاعد التي اكتظ بها منزل والدي. ذهب الرجال والنساء إلى غرف منفصلة ليغنوا، ويرقصوا، ويلتقطوا الصور، ويقدموا تبريكاتهم، وعند نحو الساعة ٨:٣٠ مساءً وصلت عائلة حمزة بأكملها في موكب من عشرين سيارة مزينة بالشرائط والأزهار، رافقني أبي وأخي الأكبر خارج المنزل، وساعداني على ركوب السيارة الأولى في الموكب، جلس أبي في المقعد الأمامي، وجلست أمي في المقعد الخلفي بقربي، ثم طلبت منها أن تنادي على منيرة لتأتي معنا.

كان بالإمكان قطع المسافة من منزل والدي إلى الشقة الجديدة في غضون ١٥ دقيقة تقريبًا، لكن كان على موكب الزفاف أن يدوم أطول من هذه المدة، لذلك جابت سياراتنا كل شارع، وكنا أحيانًا نطوف حول الحي. وكان جميع أقاربي يمدّون أجسامهم من نوافذ السيارات يغنون ويزغردون لأي أحد يستمع إليهم. كانت هذه طريقتنا لإخبار الجميع بأننا عقدنا قراننا.

ثم أقلّتنا السيارة إلى الشقة المفروشة التي استأجرها حمزة، علق حمزة صورًا لوالديه ولي على الجدران، ووضع باقات من الأزهار الحمراء والبيضاء. كنت أبدو كعروس مثالية في كل صورة التقطت في ذلك اليوم، باستثناء الحزن الذي كان واضحًا على ملامحي. لقد تغلبت على رغبتي في البكاء طوال اليوم، لكني لم أستطع إخفاء تعاستي، وسرعان ما أعلن أننا أصبحنا زوجًا وزوجة.

وعندما وصلنا أخيرًا إلى الشقة وقف أبي وأخي على يميني ويساري، ورافقاني للطابق الأعلى، حيث كان حمزة ينتظر ليكشف الطرحة عن وجهي، ثم دخل الجميع في شقتنا الصغيرة، وبقوا هناك ساعتين تقريبًا.

صافحتني منيرة، وعانقتني، ثم رجوتها ألا تتركني وحيدة مع حمزة، لكنها نظرت إلي نظرة هزلية، وقالت بلا مبالاة: إنني متوترة فحسب، تمنيت ألا يغادر الآخرون، لكنهم رجعوا إلى منازلهم واحدًا تلو الآخر، مقتنعين أنني جاهزة الآن لأخلو بزوجي الجديد.

obeikandl.com

عندما غادر الجميع التفت إليّ حمزة، قائلًا:

«اذهبي، واغسلي وجهك، فأنت تبدين سخيفة بالمكياج».

كانت أمه قد أعدت لنا طعام العشاء، وتركته في المطبخ.

قلت لحمزة: إنني لست جائعة، وانتظرت حتى نام لأذهب إلى المطبخ لآكل. استغرق ذلك بعض الوقت؛ لأنني كنت أنتظر حمزة أن يتخلى عن ممارسة الجنس في ليلة زفافنا.

خلال الأيام الأربعة المقبلة كان حمزة يذهب إلى متجر أبيه في النهار ليعمل معه. لكن قبل أن يذهب للمتجر كان يأخذني إلى منزل والديه حتى أمضي يومي أساعد أمه في الطبخ والتنظيف.

وفي إحدى الأمسيات سألني إن كنت أرغب في الذهاب لأتمشى معه؟ وهكذا ذهبنا كزوجين سعيدين للتجول جنبًا إلى جنب في حديقة ملاصقة لملعب رياضي قريب، ثم أمسك حمزة يدي، ونحن جالسان على مقعد، وقال:

«أريد أن أطلب منك شيئًا يا فدوى».

«ما هو؟».

«أنت تعرفين أنني ما زلت طالبًا، وليس لدي الكثير من المال حاليًّا، فقد كان علي أن أدفع الكثير لحفلة الزفاف ولمهرك. أنا أعرف أن لديك بعض الجواهر الذهبية؛ لذا أريدك أن تبيعيها، وتعطيني ثمنها».

صُعقت مما قاله.

«لا، لن أعطيك إياها لقد عملت جاهدة لأكسب مالي، ودفعت ثمن الجواهر بنفسي قبل أن أتزوجك، ولا حق لك في الحصول عليها، لن أبيعها».

احمر وجه حمزة غضبًا، عندما رفضت إطاعة أوامره.

«حسنًا، إذن من الآن فصاعدًا لن أسمح لك بارتداء أي جواهر ذهبية، احتفظي بذهبك».

ولكن والديّ سوف يحضران لزيارتي اليوم؛ ليهنئونا سيشعران بشيء ما إن لم أرتدِ الجواهر.

«حسنًا، يمكنك ارتداء جواهرك اليوم، لكن عندما يغادران عليك أن تخلعيها، أو تبيعيها».

مضى أول أسبوعين من زواجنا ببطء شديد لم أصدق أنني سوف أعيش مع هذا الرجل بقية حياتي.

عرفت عائلة، ولم أرغب في البقاء معهم، لكني لم أستطع البوح بذلك لزوجي الجديد، لقد كنت خائفة منه؛ لذلك انتقلت للعيش مع عائلة حمزة. أخذتني أمه لتريني الغرفة التي سأمكث فيها، ارتفعت معنوياتي لحظة؛ لأنه ربما ستعاملني عائلته باحترام؛ لأنني متزوجة الآن. لكني سرعان ما اكتشفت أن مكاني هنا سيكون أقل شأنًا مما كان عليه، عندما كنت عزبة. فعندما كنت أعيش في منزل والدي كانت لدي غرفتي الخاصة؛ لأن إخواني كانوا يخدمون في الجيش الأردني، وأخواتي جميعهن قد تزوجن، وكان لي أيضًا وظيفة وجواهر ذهبية اشتريتها من مالي الخاص.

بعد أيام قليلة من زواجي في ٢٥ أكتوبر كان على حمزة أن يعود إلى إسستاتن أيلند نيويورك، أما أنا فلم أستطع الذهاب معه على الفور، يجب علي أن أنتظر الحصول على أوراق الجرين كارد؛ حتى أدخل أمريكا.

حمزة: يجب عليك أن تبقي مع عائلتي إلى أن يحين السفر، فذلك من العادات والتقاليد.

ومن المؤسف أن أهلي لم يعارضوا أن أبقى مع أهل حمزة، وهو غير موجود، على الرغم من أن له أخوين عزبين.

في منزل عائلة حمزة تشاركت غرفة نوم مع أخوات حمزة الثلاثة: أمل، وإيرما، وحنان، أربعتنا في غرفة صغيرة، وكنت مضغوطة بين فتيات لم تتجاوز أعمارهن العاشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة.

كانت حماتي ذات الطبع العدواني اللا مباشر مسرورة؛ لأن لديها الآن خادمة جديدة تعمل. لقد كان لديها غسالة آلية، لكنها كانت تقول لي: إن الغسيل اليدوي يجعل الثياب أنظف؛ لذلك تبعتها إلى المطبخ، حيث مزجنا مسحوق الغسيل مع الماء في المغسلة، وبدأنا نفرك الثياب قطعة قطعة.

وبعد بضع دقائق توقفت حماتي، ومسحت جبينها مطلقة زفيرًا عاليًا، ثم جلست لترتاح على الكرسي.

«ما الخطب يا عمتي؟».

«لا شيء، لا شيء أنا فقط لا أستطيع الوقوف وقتًا طويلًا، فأنا أتعب كثيرًا بسبب الضغط على مفاصلي، استمري من دوني أعرف أنك ستقومين بعمل جيد».

نظرت إليها لحظة، ثم رجعت أغطس يدي في الماء المليء بمسحوق الغسيل. وكنت أضغط على أسناني، بينما امتلأت يداي ببثور حمراء تثير الحكة، ثم أريت يدي لحماتي، معتقدة أن لا خيار لديها إلا أن تسمح لي باستخدام الغسالة؛ لأنني أتحسس من مسحوق الغسيل.

«ماذا أفعل يا عمتي؟».

«مممم. لا تقلقي يا فدوى، سأجد حلًّا لهذا».

وفي اليوم المقبل جاءت حماتي تعدو إلى المطبخ معلنة أنها وجدت حلًّا لمشكلتي. ثم رفعت مبتهجة زوجين من القفازات المطاطية اشتراهما (حماي) من وسط المدينة.

حددت هذه الاستجابة معالم الأشهر القليلة المقبلة، فكنت يوميًّا أستيقظ باكرًا، وأنظف طوال اليوم، وكان (حماي) يرجع من متجر الأحذية بعد الساعة ١١:٠٠ مساءً، فكان علي إعداد طعام العشاء له.

كانت حماتي تقول لي: «كنت أفعل ذلك بنفسي يا فدوى، لكنه يأتي متأخرًا للمنزل، وأنا متعبة، لكنك صغيرة في العمر، وأنا متأكدة أن ذلك أمر هين عليك».

ذهبت في أحد الأيام مع حماتي إلى وسط المدينة، واشترينا ماكينة خياطة، كما ترغب، وكنت دائمًا بعد الظهر أحاول تعليمها كيف تستخدمها، لكنها كانت تتظاهر بالحيرة، وهرعت في النهاية خارج الغرفة، مؤكدة لي أنني سأكون أفضل منها في تصليح ثياب زوجها وأولادها. ثم كان علي أيضًا كيّ ثيابهم، حتى ثياب (حماي) الداخلية.

وفي ٣ كانون الثاني ١٩٨٧م رجع حمزة في زيارة أسبوعًا واحدًا إلى عمان. ولهذه المناسبة العظيمة انتقل والداه من غرفة نومهما، وسمحا لنا بالنوم على سريرهما، وعلى الرغم من أن حمزة كان معي إلا أنني شعرت بالرفاهية، عندما تمددت على سرير كبير مليء بالوسادات وخالٍ تمامًا من الأطفال. كان هدف كل هذا الترف طبعًا هو أن أبدأ أنا وحمزة في

إنجاب الأطفال. فما جعلني مغمومة هو أنني لم أستطع بعد الآن تجنب محاولات زوجي التقرب مني جسديًّا.

وفي ذلك الأسبوع جاء جد حمزة من فلسطين ليزورنا، اسمه (يوسف) والد أمه، الذي أعجب كثيرًا بي. جلس على الأريكة بقربنا، وأمسك يد حمزة، قائلًا له بكل جدية: «إن فدوى فتاة رائعة يا حمزة؛ لذلك عليك أن تعتني بزوجتك الجديدة الجميلة».

أجابه حمزة، مرتبكًا قليلًا: «نعم، بالطبع يا جدي».

بعد أسبوع عاد حمزة إلى نيويورك، ورجعنا كلنا إلى روتيننا السابق. لقد أصبحت أكره تلك الأيام الطوال المليئة بالخياطة وغسيل الثياب (حذرة ألا يدخل ماء الغسيل داخل قفازاتي المطاطية) وإعداد الطعام لـ(حماي) حتى منتصف الليل تقريبًا.

في نهاية شهر كانون الثاني أصبحت حاملًا بطفلي الأول. جعلني ذلك مبتهجة، لكن ليس بسبب الطفل فحسب، فقد طار قلبي فرحًا لرؤية حماتي تخيط جوارب زوجها المثقوبة، وتنظر إلي حزينة، وفي يدها الإبرة والخيط، بينما كنت أبتسم لها ابتسامة عطف، وأربت على بطني المنتفخ.

«آسفة يا عمتي، لكن الطفل...».

لكن اتضح أنني أخطأت في الحكم على أم حمزة. فقد بدت سعيدة عندما عرفت أنني حامل، أخيرًا سيجعلها أحدهم جدة. لكن باستثناء ذلك لم يتغير شيء، واستمر الحال كما في السابق: أستيقظ مبكرًا، وأنظف طوال اليوم، وأعد عشاء (حماي) قبل أن يصل إلى المنزل.

لم يسمح لي والدا حمزة بزيارة عائلتي وحدي، وحتى عندما يرافقني (حماي) لم أستطع البقاء أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات. وفي شهر نسيان طلبت من والدي حمزة الإذن بالمبيت عند والديّ، فقد كان عزيزًا على قلبي أن أكون مع عائلتي بعد حلول الليل حتى نأكل مع بعضنا. كنا في شهر رمضان الذي فيه نصوم النهار يوميًّا مدة شهر، وبعد نقاش طويل وافق والدا حمزة أخيرًا، فركضت فرحة إلى متجر الأحذية لأتصل بوالديّ، وأخبرهما بأنني قادمة. وهكذا بقيت في منزل والدي ثلاثة أيام، وجاءت أخواتي وأولادهن ليمضوا الليل كله معنا. ثم جاءت منيرة، وضحكنا، وتحدثنا مع بعض بحرية أول مرة منذ أشهر، أمسكت منيرة بذراعي، وأخذتني إلى غرفة المعيشة لنتحدث دون أن يسمعنا أحد.

«أريد أن أخبرك بشيء يا فدوى. لقد رأيت سناء منذ بضعة أيام، وأخبرتني بأن أحمد أنهى خدمته العسكرية، وعندما سمع أنك تزوجت حزن، وغادر الأردن! إنه يعمل حاليًّا في البحرين».

على الرغم من كل ما حدث فرحت قليلًا بسماعي أخبار أحمد، لكن سرعان ما أصابني دوار عندما علمت أنه غادر الأردن، فعما قريب سوف أغادر الأردن أنا أيضًا، لم أستطع أن أخبر أحدًا، ولا حتى منيرة، عن تعاستي في زواجي والصعوبة التي أواجهها في العيش مع والدي حمزة، فلم أرغب في أن أشعرها بالحزن، وعلى أي حال ليس في اليد حيلة الآن.

بدأ يظهر عليّ تأثير الإرهاق بسبب الأعمال الكثيرة التي كانت حماتي تجعلني أقوم بها. ففي إحدى الليالي في أواخر شهر أيار شعرت بالغثيان، ليس ذلك الشعور بالتقيؤ، بل كأني أعاني الإمساك. فكرت لحظة أن أستشير حماتي في مشكلتي، فهي في نهاية المطاف أم سبعة أطفال، لكني لم أشعر بالراحة نحوها، لذلك لم أقل لها شيئًا، عندما ذهبت لتنام. انتظرت حتى وصل (حماي) إلى المنزل، وتناول الطعام، وذهب لينام، ثم ذهبت للمرحاض لم يحدث شيء، ذهبت لأستلقي في سريري بين أخوات حمزة، أفرك بطني ألمًا من المغص.

سألتني حنان: «ما الأمر يا فدوى؟».

كذبت، قائلة: «أنا بخير».

لكن لم يتوقف الألم، نهضت مرات عدة؛ لأذهب إلى المرحاض، وأضغط معتقدة أنني أعاني الإمساك فحسب، سال الدم بين رجليّ، ثم نظرت في التواليت، ورأيت شيئًا صغيرًا زهريًّا فاتح اللون في الماء، جاهلة ما هو ذاك الشيء، سحبت سيفون الماء في التواليت، واستخدمت فوطة صحية لتنظيف الدم.

في صباح اليوم المقبل أخبرت حنان والديها بأنني كنت أنزف طوال اليوم، لم يعرفوا أين يأخذوني، لكني تذكرت أن لي صديقة تعمل لدى طبيب نسائي، وهكذا ذهب (حماي) وحنان معي إلى عيادة الطبيب، وجلسا في غرفة الانتظار ريثما أجري الفحوص، ورافقتنا سكرتيرة الدكتور عصام وممرضته؛ صديقتي رائدة، إلى الغرفة؛ لأن الدكتور عصام رجل، ولا يمكنه أن يخلو بي. وهناك أخبرته عن حماتي التي تجعلني أعمل طوال اليوم.

أفهمني الدكتور بأني فقدت طفلي. طبعت ذلك التاريخ في ذهني (٢١ أيار ١٩٨٧م) حتى لا أنسى أبدًا ذلك الطفل الذي لم تتح له حتى فرصة الخروج للحياة.

وبعد أن نظفني، وأعطاني أدوية لأوقف النزيف قال الدكتور عصام لـ(حماي):

«لقد فقدت فدوى طفلها الليلة الماضية يا أبا حمزة، وأعتقد أنه من الأفضل أن تجعلها تستريح مدة».

اندفع (حماي) قائلًا: «لكن فدوى تستريح طوال الوقت يا دكتور عصام! فليس لها وظيفة حتى، ولا تفعل شيئًا إلا الاستراحة طوال اليوم!».

طبعًا هذا غير صحيح، أعتقد أنه كان يعلم أن زوجته تعاملني كالخادمة. بعد أن غادرنا عيادة الطبيب توقفنا عند متجر الأحذية، واتصل (حماي) بحمزة في نيويورك لإعلامه بشأن الطفل، ثم أعطاني سماعة الهاتف لأتحدث معه، وشعرت من كلامه بأنه متعاطف معي قليلًا.

«لا تقلقي يا فدوى. أنت ما زلت صغيرة، وسوف تنجبين كثيرًا من الأطفال».

كنت لا أزال أشعر بألم شديد، فلم أَعِ ما يقوله جيدًا، ورجعت كئيبة إلى حياتي خادمة في منزل والديّ حمزة.

في الرابع من حزيران مرضت جدة حمزة، وطلبت من حماتي أن تذهب لتزورها في فلسطين. وقبل أن تغادر قالت لـ(حماي): إنني سوف أعتني بالمنزل في أثناء غيابها. أرعبني كلامها، وركضت نحو الباب وراءها.

«لكن يا عمتي، أنا أنظف المنزل، وأحضر الطعام لعمي فقط، وليس لكل العائلة!».

ربتت على جبيني، وابتسمت، قائلة: «ستكونين بخير يا فدوى، سوف أغيب أسبوعين أو ثلاثة فقط، ما عليك إلا أن تعدّي لهم الكيك، فهم يحبون الكيك الذي تخبزينه، ومن السهل تحضير الأرز والخضراوات أيضًا».

غادرت حماتي، وأصبحت فجأة مسؤولة عن ستة أشخاص. ففي الصباح كان علي الاستيقاظ وإعداد الفطور لهم جميعًا، ثم أحضر لهم طعام الغداء؛ ليأخذوه معهم إلى المدرسة. كان من السهل إعداد البيض المخلوط والجبنة بكميات كبيرة، وأصبحت متمرسة في إعداد الحمص، لكن عندما حاولت إعداد سبع كاسات من الأرز كنت أحرق قاع الطنجرة، لذلك كنت أضطر إلى التخلص منه، وأحاول من جديد.

obeikandi.com

ومـا جعل الوضـع أكثر صـعوبة هـو أن أخـت حمزة الصـغرى (أمل) كانـت طفلة ذات احتياجات خاصـة. فقد كانت سـابع طفلة لحماتي، ولم تشـعر حماتي بالحاجـة إلى الذهاب للطبيـب إلا بعـد أن جاءها المخاض. وعندما ولدت أمل أخبر الطبيـب حماتي بأن أمل كانت تعاني نزيفًا في الدماغ، وتعرضت لضرر دائم. أما أنا فكنت خائفة أن تؤذي نفسها، ولم أعرف ماذا أفعل لمساعدتها.

«ماذا أفعل يا عمي؟ أنا لا أعرف كيف أعتني بأمل».

«فقط راقبيها يا فدوى، ستكون بخير».

وفي أحد الأيام عندما كنت أغسـل الثياب (طبعًا فرصة لاستعمال الغسالة) سمعت أمل تبعثر في المطبخ، رميت الثياب المبتلة على الأرض، وهرعت لأرى ماذا تفعل. وهناك وجدتها واقفة قرب الفرن تحاول فتح بابه، وكانت النار تهب من أطرافه.

«ماذا تفعلين يا أمل؟ ابتعدي عن الفرن!» أمسكت ذراعيها، وسحبتها بعيدًا عن الفرن.

«عمي! عمي! كادت أمل تحرق نفسها في الفرن!».

أخبرنـي (حمـاي) بألا أقلق، وأراقبها على الدوام. لكنه وضـع قفـلاً على باب المطبخ، وأعطاني المفتاح.

فـي تلك الليلة، وبينما كنت نائمة نومًا عميقًا أيقظتني فجأة ضـجة عالية. فركت عينيّ، واستيقظت أستمع بانتباه.

ورر–سويش، ورر–سويش.

مشيت باضطراب في الممر، وأضأت النور في غرفة الغسيل.

«ماذا تفعلين هنا يا أمل؟ إنه وقت النوم».

«سروالي مبلل، ويجب أن أجففه».

«لكنك تضـعينه في الغسـالة، أنـت لا تجففينه بل تبللينـه. لقد كان أصـلاً جافًّا؛ لأنني غسلته البارحة».

أطفأت الغسالة، وأمسكت يدها لأرافقها إلى سريرها.

«تعالي يا أمل، لننام، سوف نجففه غدًا».

«لا!» أجابت بصوت عالٍ، مبتعدة عني.

«أرجوك يا أمل، علينا أن ننام».

لكنها بدأت بالصراخ: «لا!! يجب أن أجفف سروالي».

لـم تذهب لسـريرها إلا عندما هددتها بإيقاظ والدها. وبصـعوبة تمكنت من النوم بعد هذه الحادثة، خائفة أن تؤذي أمل نفسها، فلم أكن أعرف كيف أساعدها.

كانـت عائلتـي من حين لآخر تزورني لتطمئن علي. وفي صـباح أحد الأيام نحو السـاعة ١٠:٠٠ صـباحًا حضـرت منيرة؛ لتزورنـي. كان (حماي) في متجـره، وكان جميع الأطفال في المدرسة باستثناء أمل. وفي النهاية اعترفت لمنيرة بمدى تعاستي في العيش مع عائلة حمزة، وكيف كانوا لا يسمحون لي بمغادرة المنزل لزيارة عائلتي دون إذنهم.

«أتتذكريـن يـا فـدوى، عندما كنـا فـي المدرسـة الابتدائية، وكانـت معلمتنا تقـرأ لنا الحكايـات؟ كنت دائمًا تطلبين منها قراءة حكاية سـندريلا، والآن أنت تعيشـين تلك الحكاية ربما سيأتي في أحد الأيام أمير؛ لينقذك».

ضحكت ضحكة سوداوية، وقلت في ذهني: ما دام حمزة ليس هو ذاك الأمير.

وفي اليوم المقبل عندما زارني أبي صُدم برؤيتي متعبة ونحيلة جدًّا، وحاول أن يطمئنني بـأن أوراقي سـتنتهي عمـا قريب، وسـأكون عندها قادرة علـى الالتحاق بزوجي فـي الولايات المتحدة، وأنشـئ عائلتي الخاصـة، تحدثنا بضـع دقائق، ثم وصـل (حماي) إلى المنزل من عمله، وسأله أبي: متى سترجع أم حمزة من فلسطين؟

«مـن الصـعب على فـدوى أن تعتني وحدهـا بهذه العائلـة الكبيرة، انظر كـم من الوزن فقدت!».

أخيرًا دافع أحد من عائلتي عني، فهم لم يلاحظوا أي مشـكلة عندما فقدت طفلي، لكن رأى أبي الآن بنفسه كم أنا مرهقة، أخبره (حماي) بأن حماتي سترجع للمنزل عما قريب، ما جعلني أشعر بالراحة؛ لأنها ستقوم بالاعتناء بالأطفال بدلًا مني.

obeikandl.com

اتصلت حماتي بعد بضعة أيام لتخبرنا بأن صحة أمها في تدهور، وأن عليها أن تبقى في فلسطين مدة أطول، بقيت هناك ثلاثة أشهر أخرى إلى أن توفيت أمها، ورجعت للأردن أخيرًا في الخامس عشر من أيلول، وحينما رجعت للمنزل كان جسدي واهنًا من كثرة العمل، لكنها لم ترقّ لحالي، ولم تتولَّ أي عمل من أعمال المنزل.

في الثاني من تشرين الأول جاء أخي (طلعت) لزيارتي في المساء، فجلسنا في غرفة المعيشة، وبدأت أبكي، عندما سمعته يقول:

«اشتقت إليك يا أختي!».

«طلعت، غدًا صباحًا اجلب سيارة أجرة هنا عند الساعة ١١:٠٠ صباحًا. أريد أن أرحل عن هذا المنزل، لكني لا أستطيع أن أخبر أحدًا هنا، فمن المحتمل أن يفعلوا شيئًا لمنعي من المغادرة، أريد أن أعيش في منزل والدي، حتى يحين موعد سفري إلى نيويورك، عدني بأنك ستساعدني».

لم يستطع طلعت أن يرفض طلبي، لذلك جاء في اليوم المقبل ومعه سيارة أجرة. تركت معظم ملابسي في منزل والدي حمزة، وأخذت حقيبة صغيرة فقط، لكن رأتني حماتي أتوجه نحو الباب الأمامي وبيدي حقيبة.

«إلى أين أنت ذاهبة؟».

«أنا ذاهبة يا عمتي، إلى منزل والدي إلى أن يحين موعد سفري إلى نيويورك، وسوف أرجع لآخذ حقائبي الأخرى».

«ماذا تقصدين بأنك ذاهبة للعيش مع والديك؟ أنت زوجة ابننا، وعليك أن تبقي هنا!».

«لا».

احمرّ وجهها غضبًا بسبب عنادي لها.

تعديتها، وذهبت مع طلعت في سيارة الأجرة، وعندما وصلنا المنزل فتحت أمي الباب، وقبلت يدها.

«فدوى، لماذا جئت إلى هنا وبيدك حقيبة؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

obeikandi.com

«لا. أنا لا أريد أن أعيش في ذلك المنزل، فأنا لست خادمة، وأبوحمزة ليس زوجي وأولاده ليسوا أولادي، لن أعتني بهم بعد الآن».

«هل يعرف (حماك) أنك غادرت المنزل؟».

«لا، لكن حماتي رأتني أغادر».

«ذهب أبوك ليشتري بعض الأشياء من البقالة، وسيرجع بعد قليل سوف نرى ماذا سنفعل».

عندما رجع أبي قبلت يده، وأخبرته بأن لا نية لي بالبقاء مع (حماي) وحماتي، سأنتظر حتى انتهاء أوراقي. لم يعارضني أبي، لكن بعد مدة قصيرة عند الساعة ١:٠٠ مساءً طرق (حماي) الباب. لم أرغب في التحدث معه، لكن بعد أن تحدث قليلًا مع أبي نادى علي أبي لآتي إلى غرفة المعيشة، وأخبرني بأن عليّ الرجوع. بدا (حماي) حائرًا، عندما تحدث إلي قائلًا:

«لماذا جئت هنا يا فدوى؟ حمزة لم يمت. عليك أن تكوني مع عائلته، فنحن عائلتك الآن».

لم يكن من الشائع أن ترفض المرأة العيش مع أهل زوجها في مثل هذه الحالة، لكني لم أهتم إن كان حمزة حيًّا أو ميتًا. فأنا لم أرغب في الرجوع.

«لقد سئمت من العيش مع عائلتك، فعمتي ترغمني على العمل طوال اليوم حتى منتصف الليل. لقد فقدت طفلي بسببها، والآن أفقد صحتي، لن أفعل ذلك بعد الآن».

حاول أن يهدئني، قائلًا: «لم أعرف أنها ترغمك على العمل الشاق سوف أتصل بحمزة، وأخبره بأنك في حاجة إلى قضاء بعض الوقت مع عائلتك».

غادرت الغرفة، وبعد ذلك بقيت مع والدي ثمانية وعشرين يومًا، وكنت أتواصل مع حمزة من خلال الرسائل.

وفي ٢٠ تشرين الأول ١٩٨٧م جاء (حماي) إلى منزلنا (على حين غفلة) ليخبرنا بأن أوراقي قد انتهت، والآن أستطيع أن ألتحق بحمزة في نيويورك. أرادني حمزة أن أسافر إلى نيويورك وحدي، لكن أبي لم يسمح بذلك.

obeikandl.com

«إنها لم تغادر الأردن من قبل! هل تسمح أنت لابنتك بأن تسافر وحدها إلى بلد غريب؟».

«دون شك، لا. سوف أتحدث مع حمزة في هذا الشأن».

وافق أبي في النهاية أن أسافر مع عزمي، أخي حمزة الأصغر، الذي أنهى حديثًا دراسته الثانوية، ويعتزم الانضمام إلى كلية في نيويورك. وكان علي أن أنتظر بضعة أيام أخرى حتى تصدر تأشيرة دراسته. وفي الليلة التي سبقت موعد رحيلي ذهبت إلى منزل والدي حمزة؛ لاسترجع حقائبي التي تركتها هناك، لكني اكتشفت أنهم أخذوا معظم ثيابي، أغضبني ذلك، لكني قررت أني لست في حاجة إلى ثيابي على أي حال، فكل ما أردته هو أن أغادر الأردن. رجعت بعد ذلك إلى منزل والدي، وأمضيت المساء أودعهما، وأودع إخوتي وأخواتي وأبناءهن.

في صباح اليوم المقبل، الموافق الثلاثين من تشرين الأول وصلت سيارة أجرة بسرعة عند الساعة ٨:٠٠ صباحًا لتقلني إلى المطار، وكان (حماي) وعزمي ينتظراني فيها. وضع أبي حقائبي في صندوق السيارة، وعانقتني أمي والدمع يملأ عينيها، وقف طلعت عند المدخل وقال لي:

«وداعًا يا أختي».

obeikandl.com